وبهذه الفعلة أراد مفيد أن يغضب والده وأستاذه فإن قطع ذنب الحمار لم يكن في الواقع سوى نوع من الرفض والتحدّي من قبل الفتى مفيد؛ فقد كان والده رجلًا قاسيا، كانت أم مفيد إنسانة حنون تدافع عن ابنها وتواسيه وتعتني به وتحاول ملاطفته دائمًا ونصحه بتغيير سلوكه الطائش ولكنها بالمقابل كانت تتلقّى الضربات والشتائم من زوجها. المراهق الشقي لم يجد من يعرف أن يتعامل معه معاملة سليمة فلم يكتشف أحد من حوله وينمّي الخصال الطيبة التي امتاز بها مفيد. المجتمع الذي عاش في وسطه ابتداءً من الأب القاسي في البيت إلى المعلم الجاهل والمغرور في المدرسة إلى المختار الذي عاقبه من أجل قطع ذيل حمار عبود. كل هؤلاء كانوا سببًا بضياع مفيد ونهايته المبكرة. عندما هرب من البيت تشرّد بين الطبيعة والمزارع ونصحه قريب أمه إبراهيم الشنكل بنسيان الماضي وترك الشقاوة والبدء بداية جديدة في مكان لا يعرفه أحد ولذا ذهب مفيد إلى المدينة. في المدينة التقى مفيد بصديقه عبدوش وهو أيضًا فتى مشاغب هرب من قريته وأصبح يعمل خبازًا وساعد مفيد كثيرًا على الاستقرار وتدبّر له عملًا معه، حتى جاء يوم وتعاركا مع العدو الفرنسي في أحد المقاهي وعلى أثرها تم رميهما في السجن مدة سنتين وكان حينها مفيد ابن 18 عاماً. علّم السجن مفيد معنى أن يكون رجلًا مستقيمًا، مفيد تحول من نكرة إلى وحش يُحسب له ألف حساب. في الميناء ولأن مفيد كان مغرورًا ويمتلك نرجسية عالية؛ بعدها أصبح مفيد يحلم بامتلاك ساقين اصطناعيتين وأصبح يتخيل المشي في الشوارع والنزول إلى البحر لكنه وقع ضحية مشاكله القديمة في الميناء حيث ظهر له عدوه المعلم بطحيش من حيث لا يحتسب ووجه أنظار الشرطة إليه وبعث له الرقيب رزيق ليقطع رزقه ويُبخّر أحلامه. فيقوم مفيد بعدها بالتّحدّي الأخير له فيقف في وجه الزلغوط عندما أراد ان ينتهك حرمة بيته والتفتيش داخله ليقوم مفيد بعد بالإمساك به والسقوط من اعلى الجرف والموت مع الزلغوط. فيه بذور الخير والشر وكلتاهما يبحثان عمّن ينمّيهما في نفسه. مفيد شجاع وعنيد في نفس الوقت، تكمن مشكلة مفيد أنّه آمن أنّه بالعمل الفردي يستطيع التغلّب على كل شيء، لكن الرواية ترمي إلى بيان عاقبة العمل الفردي الذي يودي بصاحبه إلى طريق مسدود وإلى تأكيد أهميّة العمل الجماعي والانتماء.

lakhasly.com © تم تلخيص النص بواسطة موقع لخصلي